

## الشاعر الجوّال

من العسير أن نحدد ما يراد بكلمة شاعر جوال Juglar في الآداب اللاتينية بصفة عامة، وفي الأدب الإسباني على نحو خاص. كان معنى الكلمة خلال العصور الوسطى واسعاً عريضاً، يتلَوَّن تبعاً للزمن والمكان الذي يتحرك فيه الشاعر. وكلمة Juglar وهي مأخوذة من الكلمة اللاتينية loquax معناها المسلي، وتطلق على الرجل الذي كان يسلي الملك أو عامة الشعب، وكان هؤلاء الشعراء الجوّالون، وهم من أصل جرمان، يذهبون من بلاط إلى بلاط، ومن سيد إلى سيد، ينشدونهم الملاحم التي تلدور حول مغامرات الأبطال. شيء عرفه الأندلس أيضاً، عندما تعددت مراكز الثقافة والإمارة، فكان الشعراء يتنقلون بين العواصم والملوك، وكان عددهم كبيراً، وفيما بعد القرن الحادي عشر الميلادي كان يلتقي في بلاط الأمير الواحد، مسلم كان الأمير أو مسيحياً، شعراء ينشدون الشعر بالعربية الفصحى، أو بالرومانسية الخالصة، أو بعامية هي مزيج من اللغتين.

كان الأمراء والسادة يطلقون كلمة شاعر جوال في القرن الثالث عشر على طبقة معينة من الناس، وكان عامة الناس يقصدون بها طبقة أخرى، ويستطيع رجل الأخلاق أن يجد بينهم الشرير المستهتر، ومن ينتزع منك التقدير والاحترام، بينما يعتبرهم المشرع دائماً أناساً رديئين سيئى الأخلاق. كان معنى الكلمة يسع جميع أولئك الذين يربحون لقمة العيش من إضحك الآخرين والترفيه عنهم، يربحون أعصابهم بالموسيقا أو الأدب أو الطريف أو الألعاب اليدوية أو الحركات البهلوانية.

من بين العنماء المحدثين الإسبان، كان ميننديث إي بلايو (١٨٥٦)

١٩١٢)، أكثر الباحثين معرفة بالعصر الوسيط، ويعرّف فن الشاعر الجوال بأنه : «لون من التسول الأكثر مرحا ودخلاً، يلجأ إليه التعماء المحرومون، والصعاليك الظرفاء، والطلاب الفقراء، ورجال الدين الصياع، والسكارى المعربدون، وكل الذين جاءوا إلى الحياة مجردين من الثروة والجاه، ويملكون منها فنيا، وينفقون حياتهم أحرارا، يكيفونها وفق الضرورات القاسية التي يواجهونها».

غير أن ميثنديث بيدال، وجاء بعد بلايو (١٨٦٩-١٩٦٩)، وشاركه وربما زاد عليه، في التمكن من معرفة مشاكل العصر الوسيط التاريخية والأدبية، يرى أن الشاعر الجوال لم يكن دائما متسولا، ولا حتى رجلا فقيرا في كثير من الحالات. بل ونجده أحيانا في وضع اجتماعي مرموق. وقد تتبع طائفة الشعراء الجوالين، فوجد أنها كانت تضم الصعلوك الظريف، ومن يغنى في الشارع، أو يمثل على المسارح، أو ينشد الشعر في الكنائس، أو قلاع الملوك أو قصور السادة، والراقصين، ومؤلفي الرقصات، وكل ألوان الألعاب والتسلية المرحية، من تقليد أصوات وأفعال الحيوان، أو لوزم أصحاب العاهات، والثرثار الذكي، وصاحب النكتة اللطيفة، والمهرج الخفيف، والعازفين على الآلات الموسيقية، ومن يقرع الطبل أو يضرب على الدف. إنهم باختصار كل أولئك الذين ينثرون المرح والبهجة بين الناس. وكل ذلك يجب أن يتم في حفل عام، والأديب الذي يكتب عملا أدبيا ليضحك أو يسلى القراء، لا يعد شاعرا جوالا إذا لم ينشد ذلك علانية، أمام جمع من السامعين.

وجرت العادة أن يلبس الشاعر الجوال ملابس لامعة، ذات ألوان زاهية متعددة تشد الانتباه. وبالطبع فإن ملابس الذين كانوا يترددون على قصور السادة من ملوك وأمراء ونبلاء كانت أرق تفصيلا، وأفخم نسيجاً. كان شعراء الملك شاحجه الرابع (١٢٨٤-١٢٩٥م) يرتدون نوعا واحداً من

الملابس، أحمر أو أبيض أو نيذيا صنع في بلنسية، وكان الموسيقيون في بلاط خوان الأول ملك أرجون (١٣٨٧-١٣٩٥م) يرتدون ملابس بيضاء، مزينة بالفضة، أما الشعراء الخمسة الذين في بلاط كارلوس ملك نبرة (١٣٨٧-١٤٢٥م) فكانوا يرتدون ملابس خضراء، ويحملون شارة فضية مزخرفة، أغلى ثمنا للرئيس منهم، وتميَّزه عن الآخرين.

وخلال العصر الوسيط كانت شعوب أوروبا تعيش تحت نظام مزدوج اللغة، فالقليل من رجال الدين وحدهم يتخذون اللاتينية لغة الكتابة والأدب بينما الكثيرة الغالبة من الجماهير تجهلها، فجاء هؤلاء الشعراء الجوالون ورفعوا العامة إلى مستوى اللغة التي يقال فيها الشعر، حتى أن كلمة Juglar أصبحت تعنى : «شاعر في اللغة الرومانية»، والرومانشية Romance هو الاسم الذي كان يطلق على اللغة العامية التي تفرعت عن اللاتينية في إسبانيا. ومن ثم يمكن القول، دون مبالغة، أن الشاعر الجوال هو الأب الحقيقي لكل الآداب الأوربية الحديثة.



في القرن الحادى عشر الميلادى دعت الحاجة إلى اسم جديد، يطلق على شاعر متميز، أشد أصالة وأكثر ثقافة، وظهر أول ما ظهر في مقاطعة بروفانس، جنوى فرنسا، بقول الشعر لأول مرة في اللغة العامية، ويعبر في شعره عن ذات نفسه، وينشد ما يؤلف أمام الطبقة العليا في المجتمع، وأطلق عليه اسم الشعاعر المنشد Troubadour، تميزا له عن الشاعر الجوال Juglar، والتقدير الذى حظيت به القصيدة الجديدة المثقفة، إن صح التعبير، بلغ حدا كبيرا من الذبوع السريع، حتى أن كلمة «تروبادور» هذه دخلت كل اللغات الأوربية، لأنها أكثر تحديدا لوظيفة الشاعر من الكلمة الأولى،

وعرفت في الأندلس المسيحية، في قشتالة بالذات، في أول وثائق رسمية، بعد ثمانين عاما من توثيق كلمة خوجلار Juglar، لقد ظهرت هذه لأول مرة في وثيقة رسمية تعود إلى عام ١١١٦، وتتصل بمدينة ساهاجون، وأخرى تعود إلى عام ١١٣٦، وتتصل بمدينة ليون، بينما نجد كلمة «تروبادور» تظهر لأول مرة في عام ١١٩٧م، على شهادة بإحدى الأديرة، شمال الأندلس، تحمل توقيع: «غومث التروبادور».

كان ثمة اختلاف بين الكلمتين منذ البدء فالشاعر الجوال Juglar ينتزع لقمة العيش بالغناء في قصائد ليست له، أو له ولكنها غير ذات مستوى، ومن ثم كان على الدوام أقل نبلا من الشاعر المنشد Troubadour، ومن جانب آخر، ولو أن الشاعر المنشد كان يعنى في جمع أحيانا، لم يكن يصنع ذلك حرفة، حتى ولو كان فقيراً، وكان دائماً شاعر الطبقة الأكثر ثقافة، وكثيرون من الفرسان، من الطبقة الاجتماعية العالية، كانوا يحاولون أن يصنعوا مثله، يقرضون الشعر ليرعوا فيه، ويدربون على الموسيقى ليتمكنوا منها، حتى يكونوا فرساناً كاملين، ولم يبعد ثرفانتس (١٥٧٤-١٦١٦م) مؤلف رواية دون كيخوته الشهيرة عن الحقيقة حين يقرر: «كل الفرسان المغامرين في القرن الماضي كانوا من الشعراء المنشدين».

تاريخياً - إذن - الشاعر المنشد، جاء في مرحلة تالية للشاعر الجوال، أو هو تطور له، وقد يكون فارساً كما ألقينا، وقد يكون مجرد شخص يقرض الشعر، وأول شاعر منشد نعرفه أكيداً، ووصلتنا عنه أخبار لا بأس بها، جيوم التاسع، دون أقيطانية (١٠٧١-١١٢٧م)، في جنوب فرنسا، وينحدر من سلالة رقيقة، وكان يحكم دولة شاسعة يعمها الثراء والرخاء، واسع الثقافة، يعرف عدداً من اللغات من بينها اللغة العربية، وتميز بشخصية ظريفة لبقة، أشد ما تكون شبيهاً بشخصية الشاعر الجوال. ورغم أن الشاعر المنشد

نال في التاريخ للشاعر الجوال ومقلد له، كان الأول - بصفة عامة - أرق اجتماعيا من الثانى، وأوسع منه ثقافة وأعلى تربية، ولو أن الحدود بين الاثنين لم تكن أبداً دقيقة وفاصلة، فقد نجد شاعراً جوالاً مثل ماركابرو Maracabru، من مقاطعة جسكون في جنوب فرنسا، والمتوفى عام ١١٥٧م، قد ارتفع بمواهبه إلى مستوى كبار الشعراء المشددين، بينما نجد شعراء مشددين، وينحدرون من نبل، لم يستطيعوا أن يستمروا فرساناً، فتحولوا إلى شعراء جوالين، لكي يربحوا لقمة العيش.

وكان هناك من يأسى لأن كلمة شاعر جوال تطلق على من يرقصون الفرود أو يضحكون الجماهير، أو يعزفون دون معرفة على إحدى الآلات الموسيقية، أو يغنون في الشوارع والميادين لغمار الناس، ثم يهرولون إلى الحانات ينفقون ما تلقوه تفضلاً، دون أن يرقوا إلى مرتبة العمل في بلاط ملك أو قصر نبيل، إن ما يقوم به هؤلاء ليس من فن الشاعر الجوال في شيء، لأن الشاعر الجوال إنسان مثقف ذكى مقتدر، يستطيع أن يدفع بالصالحين من الناس في طريق البهجة والمتعة والشرف. وبعد هؤلاء جاء الشاعر المنشد Trouba-dour ومهمته أن يمدح الشجعان، ويمدحهم بالتأييد المعنوي، ويشجعهم على الأعمال النبيلة. ولقد شكى Giraldo Riquier، وهو أديب قشتالي كبير إلى منك قشتالة عام ١٢٧٥م هبوط هذا الفن، وانتساب كثرة من المشعوذين إليه، وطلب منه أن يحدد أسماء الشعراء، وأن يعين على نحو خاص من هو الذى يطلق عليه اسم شاعر جوال Juglar، ويحق له أن ينتحل هذا اللقب.

ولم يسمُ الملك للأديب القشتالي بوجهة نظره، لأن شمول المعنى في كلمة شاعر جوال لا يتعدى مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا، فهناك يشمل كل الطوائف التى أشرنا إليها من قبل، أما في الأندلس فلكل طائفة اسمها الخاص

بها. وتطلق الكلمة على من يغنون بمصاحبة الآلات، أما الذين يقلدونهم، أو يشدون كلاماً بلا معنى، أو له معنى سخيف، أو يعرضون فناً رديشاً في الشوارع والميادين، أو يبتزون الناس أموالهم بلا شرف، فكل طائفة منهم لها اسمها الخاص بها، ولا يمكن بأى حال أن يندرج في معناه، من يُرقِّصون القروء أو الماعز أو الكلاب، أو يضحكون الناس بتقليد أصوات الطير والحيوان، أو الحمق والمغفلين والبلهاء، ومن يغنون للعامّة بأى أجر مهما كان ضئيلاً. إنما الشاعر الجوال - فيما يرى الملك - من يعزف بفسن، ويتغنى بأدب، ويشد أشعاراً نظمها آخرون، يطرب بها الأغنياء من القوم، ومثل هؤلاء يجب أن يلقوا الترحيب في أى بلاط، لأنهم يحملون إلى قصره الراحة والمتعة والسرور. أما الشاعر المنشد Troubadour، فهو الذى يبدع الشعر، ويمجد الرقص، ويلحن الأغنية، ويصوغ المدائح، وينظم الموشحات، وأخيراً يطلق اسم «المعلم» على من اتصف بين هؤلاء بالشعر الرقيق، وعرف بالثقافة الواسعة، والتمزج جادة الشرف، وأعلن الحرب على كل ما هو مشبوه ومنحرف.



كان الشاعر الجوال أدن اجتماعياً من الشاعر المنشد، لأنه تابع له في عمله فهو يغنى أشعاره، أو يصاحبه بألته الموسيقية في الغناء، وكبار الشعراء المنشدين كانوا يتجولون عبر شبه الجزيرة، وفي صحبة كل واحد، بحسب أهميته، عدد من الشعراء الجوالين، وهو بعامّة غير قادر على قرض الشعر. يعيش في أغانيه على قصائد يطلبها من الشاعر المنشد، وكان هذا في مقاطعة بروفانس هو الذى يختار بنفسه الشاعر الجوال، ويشير إليه في قصيدته، ليقوم بمهمة نشرها - أو روايتها - أو يغنيها لأصدقائه الذين يود أن يجيهم أو يطلب عونهم، أو لأعدائه الذين يسبهم ويتحداهم، وفي أحيان كثيرة كان الشاعر

المشند يسخر من الشاعر الجوال التابع له، وفي الوقت نفسه لا يمجّد هذا الأخير حرجاً في أن يغني شعراً يدور حول سبه وهجائه، وأن يهزأ من ناظمه، ويغالي في تحقيره والتشنيع عليها. ورغم هذا كان عليهما أن يتعاونوا، لأن كلا منهما محتاج إلى الآخر، الشاعر المشند يقول الشعر ويقرضه، والشاعر الجوال ينشره ويغنيه، وبق هذا الفرق واضحاً حتى بعد أن فقد الشاعر المشند صفة الفروسية والاستقلال، وأصبح الشعر مهنة له يتعيش منها، وتحوّل إلى مدّاح لحوح، لأنه بق دائماً شاعر البلاط والقصر والقلعة، يقف بفنه عند تسليّة الملك والأمير والنبيل، وبق الشاعر الجوال، حتى ولو جرؤ على تأليف الشعر الذي يتغنى به، شاعر الجماهير دائماً.

لأحد كالشاعر المشند يعرف مبادئ الشاعر الجوال وقائمه، ومن شعر الأول نعرف ما كان عليه الثاني من شعب وسكر وعريضة ونصوصية وحتقار كل ما هو محترم، ومع ذلك كان يتمتع بالكاهنة الظرفية، والصوت الرهيف، والذاكرة القوية، وقدرة فائقة على أن يترجم بنبهه معاني القصيدة مجسمة، وأن يلتقط ما يريد المؤلف من هدف بعيد وخفي ويقدمه لتسامع قريبا واضحاً. لكن مواهبه مهما بلغت تفهقرت أمام ردائله، فكان يردد كل يوم الحطاطا، ولم يأت النصف الثاني من القرن الرابع عشر، حتى ترك العناء، وعزف عن إنتاج الشعر، وقصر نفسه على الموسيقى، وارتبطت كلمة شاعر جوال Juglar بالحظّة والضعفة ارتباطاً وثيقاً، فألغيت من معظم القصود. واستعاض عنها الملوك بكلمة Menestrel الفرنسية، ولها نفس مدلول الكلمة القشتالية قبل أن ينحدر معناها. وأصبحت كلمة شاعر جوال مرادفة له-ي : الإنسان ثرثار لطيف، ساخر الحديث، صاحب نكتة، صابغ غير مستتر، يعيش حياة قلقلة على الدوام».



باتساع الهوة بين ما كان عليه الشاعر المنشد وما عليه الشاعر الجوال، ظهرت طبقة ثالثة تملأ ما بينها من فراغ، أحط من الأول وأرفع من الثاني، وتكون بينها حلقة اتصال، واختص بها الأندلس وحده، ويطلقون عليها بلهجة جيليقية، اسم Segreier أو Segrat<sup>(١)</sup>، ولست أعرف كلمة واحدة في العربية يمكن أن تؤدي هذا المعنى، ولكني أعتقد أن إطلاق اسم «الشاعر المنشد الجوال» عليه، لأنه أخذ من صفات كل واحد شيئاً، يمكن أن ينتهي بنا إلى المعنى المقصود. ينتمي هذا الشاعر - عادة - إلى جماعة تتحرك في إطار طبقة الفرسان، يقومون لهم على الخيل إعداداً وإطعاماً وعلاجاً، وقد يكون فارساً من الطبقة الدنيا، أو نبيلاً مفلساً، ورث اللقب دون أن يرث معه مقوماته، ولا يملك من الوسائل ما يرفعه إلى مرتبة الفروسية، أو يفي بمطالب النبيل، فيجد في قرض الشعر وسيلة للعيش، يرحل من بلاط إلى بلاط، ويصحب الجيوش، ينشلها قصائده أحياناً، ويفنى لها قصائده غيره أحياناً أخرى، ويشترك معها في القتال إذا دعت الضرورة، ويؤمن بكرامة مهنته. غير أنه تأثر في أخلاقه الشخصية بأخلاق الشاعر الجوال، فهو سكير ثرثار، لحوح سؤول، دائماً مع سيدات لسن فوق مستوى الشبهات.

لقد كان يفترق عن الشاعر عن الجوال بأنه ينتمي إلى طبقة الأشراف، وقرض الشعر بهدف أن يغنيه، وليس عرضاً أو هواية، ويفترق عن الشاعر المنشد بأنه كان يتقاضى لأغانيه أجراً.

ومنذ القرن الثالث عشر نلتق بالعميان داخل نطاق الشعراء الجوالين، يكونون طبقة متميزة، ويشير لهم كثيراً رئيس كهنة مدينة هيتا، من أدباء القرن الرابع عشر الميلادي، في كتابه: «الحب المحمود»، ونبعتهم أحياناً

(١) يرى خوليان ريبيرا أن هذه الكلمة تطور لكلمة رحال العربية، وقد ترجمنا دراسته عنها، ونشرناها في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

بالعميان المتسولين، لأنهم يمشون بقيادة صعلوك، ينشدون ويغنون ويطلبون الصدقات، خبزاً أو مالا أو شرباً أو ملابس، وليس هذا مما يطلبه المتسولون عادة، إنما يرتفع بمن يطلبه إلى مرتبة الشاعر الجوال. وكان رئيس الكهنة شديد القسوة عليهم، فاعتبرهم أخط درجات الشعراء الجوالين، رغم أن بعضهم كان يمتلك مواهب نادرة، تؤهله ليطلع في أي بلاط ملكي، وبعضهم لمع فعلاً، وبقى الأعمى حتى نهاية القرن الرابع عشر، في الأندلس وفي جنوب فرنسا أيضاً، مشهوراً بأنه خير من يقص حكايات البطولة القديمة ويغنيها.

وكان بين الشعراء الجوالين من يتمون إلى طبقة رجال الدين، يتخذون من أبواب الكنائس مسرحاً، يضحكون الناس بحركات بهلوانية، أو يغنونهم أشعاراً دينية، إلى أن صدر قرار المجمع الديني المنعقد في طركونة عام ١٣١٧م، بمنع رجال الدين من احتراف مهنة شاعر جوال، وكان من السهل دائماً على الشاعر الجوال أن يصيح رجل دين، والعكس صحيح أيضاً. ونجد في وثائق عام ١١٦٠م أن رجل دين يدعى كليمنت، كان يقرض الشعر، ويبيد الغناء، ثم ترك الرهينة ليصبح شاعراً جوالاً، ومضى يعرض فنه بين القصور المختلفة، غير أنه عاد إلى حرفته الأولى، رجل دين من جديد، فقد وجد هذه تدر عليه الربح أكثر مما تعطيه المهنة الأخرى.

وإلى جانب الرجال نجد النساء أيضاً، وعلى نحو خاص في القرن الثالث عشر، وحدثن أو مع الرجال، في قصور الملوك، وقلاع السادة، وأفرح الجماهير، يعرضن فنونهن المختلفة، وكانت المرأة الجواله مثلاً للمرأة الصايعة، تريح حياتها بما يدفعها لها الجمهور. وكان بينهن، على نحو ما كان شائعاً في العصور الوسطى وعلى أيامنا هذه، من يقدمن للجمهور الغناء والرقص وأجسامهن أيضاً. ويأتى ذكرهن في أخبار القرن الثالث عشر على أنهن شاعرات جوالات، ويشير إليهن الشعراء على أنهن سيدات مرحات، دون أن يعرضوا لما

يقدمه من فنون تفصيلاً، ربما لأن فنه كان ثانوياً في حفلات القصور بالنسبة لما يعرضه الرجال، وأحياناً كان يطلق على المرأة الشاعرة الجوالَة اسم Soldada أى التى يؤجرها تابعها، زوجاً أو رفيقاً أو صديقاً، ليربح من وراثتها شيئاً.



كان الشاعر الجوال إذن يزاول أشياء كثيرة، يعزف الموسيقى، ويغنى الملاحم، وينشد قصائد الغزل، وينظم الشعر، ولكنه في الوقت نفسه مهرج مشعوذ يضحك الجماهير، وامراته بهلوانة. غير أن هناك شعراء جوالين كانوا أكثر احتراماً من غيرهم، وجُددوا في قشتالة حيث ازدهر أدب الملاحم وفي أمكنة أخرى كأرجون، ووقفوا حياتهم على رواية شعر البطولة ومغامرات الفرسان، ومعجزات القديسين، فكانوا موضع الرضا من رجال الدين والأحلاق، ومن ثم يمكن أن نميز بين فريقين من الشعراء الجوالين : من تخصصوا في الأشعار القصصية، ومن أعجبوا بالشعر الغنائى. والذين يعزفون الموسيقى يعرفون من أدواتها : الناي والبوق والمزمار والقيثارة والقانون والرباب، ثم الدف والطبل، ويعتبر من يستخدمهما أدنى طبقة من الآخرين. وكل قصيدة تستدعى موسيقاً معينة، على آلة محددة، تصاحبها في الغناء أو الإنشاد.

مهمة الشاعر الجوال أن يرفه عن كل الناس، من أعلى درجة في المجتمع إلى أدنى طبقة فيه، ويسعد بمهاراته الملوك كما يسعد عامة الشعب، وترتبط نوعية الشاعر بالمستوى الاقتصادي لمن يغنيه، فلا يمكن التسوية بين شاعر ضمنت له لقمة العيش، وتوفرت له سبل الإجابة، وسرت له آلات الموسيقى، وبين آخر ينتزع رزقه من جيوب جماهير مطحونة، بصعوبة بالغة.

كان من الشعراء من يتردد على القصور، ومن يرحل من بلاط إلى آخر، ومنهم الموظف المقيم، الملتحق بجاشية الملك أو السيد أو الأمير، يتقاضى راتباً

ثابتاً، ومهمته أن يسليهم بأرقى مهاراته وأدائها، وما تدرج منها بين السمو والانحطاط. وكان غرام الملك وكبار رجال الدولة بهذا الفن مشار الشكوى الدائمة، لأنه أخطر ما يفرم به إنسان مسئول، فقد جعلهم ينسون واجباتهم العامة تماماً. ويتمتع الشاعر، موظفاً أو عابراً، بتقدير كبير من الملك ومن حوله، ويسفر لهم أحياناً، فقد كان الشاعر الجوال من أشد وسائل النشر فاعليةً وتأثيراً في الرأي العام. وزاحم كبار رجال الدين، ورؤساء الكنائس والمطارنة، الملوك والساسة في هذا الاتجاه، فكان لهم شعراؤهم الجوالون أيضاً، وتعكس وثائق هذا العصر سخطاً مريباً من شعراء مثقفين، يقرضون الشعر باللاتينية، ولكن الكنيسة، واللاتينية لغتها وبين رجالها تعيش، أوصلت أبوابها في وجوههم، بينما ترحب بالشعراء الجوالين وتسخو عليهم في العطاء. ولم يتردد صغار رجال الدين في تقليد كبارهم، ثم أسرفوا في اتخاذ هؤلاء الشعراء، فأصبح الأمر موضع النقد الشديد، واضطرت الجماع الدينية أن تحرم هذا العمل، وأن تشدد عليهم في النكير. واتسعت دائرة توظيف الشاعر الجوال، فكان للبلديات شعراؤها، بل ولكبار الشعراء المنشدين أيضاً. وكثر عددهم، وزادت مرتباتهم، فكان الملوك يهدونهم القصور والضياع، ويعفونهم من الضرائب والالتزامات. وأحياناً يتلقون رواتبهم من البلديات قحاً أو شعيراً أو ملابس أو نبيذاً، أو قدرأ معدداً من المال، ومع زيادة العدد، وكثرة الدخل، أصبحوا يكونون طبقة برجوازية متمسكة في عدد من المدن، وأشهرها ساهاجون في القرن الثالث عشر، وأشبيلية بعد ذلك بقرنين من الزمان.

وقد يقنع شاعر الجمهور بعد أن ينتهي من إنشاد الملحمة أو القصيدة بسؤال سامعيه شيئاً متواضعاً: أن يأمرؤا ساقى الخان يقدم له شيئاً من النبيذ، أو يهبونه كسوة، إذا لم يكن في جيوبهم شيء من المال. وعند ما يبلغ الطرب والإعجاب بالفارس حده، كان يتنازل للشاعر عن جوده، أو بغله، وكان

امتطاء هذا الجواد خلال رحلاته أعظم شيء يطمح إليه، لأنه يزيد من قدره، ويرفع من قيمة الهدايا التي تقدم إليه.

وعند ما زوّج السيّد بنتيه، تبعاً للواقع وكما في الملحمة، وزع الملابس على الشعراء، وكان تقديم الملابس أكثرها شيوعاً، والأسلحة أقلها تقدماً، وقد تطرح الملابس تحت قدمي الشاعر زيادة في الإعجاب به، وأحياناً تبلغ من الكثرة حداً يجعل حملها مصدر ضيق له. وعندما تزوج ألبونسو الرابع ملك أرجون، وأقيمت الحفلات في سرقسطة عام ١٣٢٨م دفع ممثلو مدينة بلنسية للشاعر الجوال ملابس محلاة بالذهب، وتنازل جميع المائتين وستة وخمسين فارساً الذين شاركوا في الاحتفالات عن ملابسهم الزاهية الفخيمة للشعراء الجوالين. وأمر الأمير دون بديرو، بعد حفل الغداء، بإعطاء ملابس غالية لكل شاعر جوال. وهو بذخ كان يثير دائماً رجال الأخلاق في العصور الوسطى، لأنه يدفع هذه الطائفة إلى التغالى في رذائلها، والإسراف في المعاصي التي ترتكبها علانية. وفي الوقت نفسه كان الشعراء المشدون من أشد الناس عداوة لأرباع الشعراء الجوال، ولم يكونوا مدفوعين بعامل أخلاقي وإنما كانوا لهم حاسدين. وكان هناك من يعتذر لنفسه، أو أمام ناظريه، بأنه يقدم للشعراء الجوالين لأنهم فقراء، وليس لأنهم شعراء. والحق أن كل طبقات المجتمع كانت أسيرة هؤلاء الشعراء تدفع لهم راضية، مهما كان مستوى الدخل الذي تعيش فيه.

ومن الشائع في التراجم البروفنسالية أن نجد سيّداً يعطى كل أثاث بيته لشاعر جوال استلطفه، والشاعر البرتغالي الجوال مرتين جالو Martin Galo. وشهر بسلطة لسانه، كان الناس يخافونه ويشترون صمته، وكان مع ذلك يجد على الدوام من يقدر شعره، فيعطيه جواداً أصيلاً، أو ملابس غالية، أو عباءة مزينة. وكان الشعراء الجوالون عادة يبيعون الملابس التي يتلقونها، حتى ولو خرقة بالية لا تجد شاربا، وبلغت ثروات بعضهم حداً يكفي لإثارة الغيرة في

صدر ملك من نبرة، أو فارس من قطلونية، فيبعث بمن يترصد الشاعر في الطريق ليسلبه ثروته وما يمتلك. والحق أن الشعراء سريعاً ما كانوا يفقدون ثرواتهم وضياعهم، دون حاجة للوقوع في قبضة قاطع طريق، فهناك الحانة حيث يشرب، وبيوت الخنا حيث يتردد، وحلقات اللعب حيث يقامر، وهي رذائل كانت منتشرة وكافية لتجعل من أى شاعر جوال مفلساً مهما ربح. ولو جرؤ اللصوص وهاجموه فسوف يتصدقون عليه رافة بما هو فيه.

ويدهى أننا نتحدث عن الكثرة الغالبة. فهناك دائماً من يعرفون كيف ينمون أرباحهم، فيشترون البيوت، ويملكون الضياع، ويختمون حياتهم بإقامة مؤسسات خيرية، تكفيراً عما ارتكبوا من آثام وموبقات.

وكان الشاعر الجوال يزاول مهنته في أى وقت، في الساعات العادية أو اللحظات المتأخرة، تبعاً للبرنامج المعد، وخيال الشاعر، ومكانة المحتفل، ولون المناسبة. مثلاً في حفل من يدعى ألبرتودى أرتيسوس، عام ١٢٢٧م، نجد بعض الموسيقيين يركبون على ثورين، مغطين بكسوة قرمزية، يدقون الطبول عند كل طبق يقدم للملك، وكان الشاعر الجوال، إلى جانب الخورى، الشخصية الرئيسية في أى حفل يقام للزواج، وكلما كان عدد الشعراء كبيراً كان ذلك شاهداً على عظمة الحفل، ورفعة شأن أصحابه. وقد يغنى الشاعر في غير حفل، عند تناول الأمير طعامه، أو استرخائه على فراشه، إذ العادة أن يلبي الشاعر أياه دعوة توجه إليه من الملوك أو العامة، حتى لو لم يكن ثمة مناسبة عامة، ويغنى في بدء المأدبة، وعند نهايتها، ومن المهين لأى أمير أن يغلق قصره في وجه أى شاعر جوال يصل ساعة تناول الطعام. وفي مثل هذه المناسبة فإنه يغنى عادة ملاحم تاريخية، أو بطولات حريرية أو عن التلاق بالسلام بين الفرسان. ولقد تكون مائدة السيد أو الإقطاعى، أو من يتشبث بمستواها الاجتماعى، بسيطة متواضعة، لكنها لا بد أن تضم بعض الشعراء

الجوالين. مغنين أو عازفين، لأن افتقادهم عمل شائن يمس كرامة صاحب الطعام.

ونجد الشاعر الجوال في الحفلات الدينية أيضاً، يلعب دوراً كبيراً، منشداً وعازفاً ومغنياً، ومنهم من ينتهي به الأمر إلى أن يصبح شاعراً جوالاً دينياً، إن صح التعبير، فيقتصر نشاطه على الكنائس، أو على الجماهير الفقيرة دون أن ينتظر منها شيئاً، وأناشيد مثل هذا الشاعر تكون دينية عادة، ويشاركه فيها القسس والرهبان، مرددين وعازفين ومنشدين. لكن ينبغي ألا نفهم من تدينهم هذا أنهم كانوا أتقياء دائماً، فقد شكوا بعض المؤرخين ورجال الدين من أن حفلات بعض القديسين التي يحضرها هؤلاء الشعراء، لا يقضى الناس ليلها مصليين خاشعين، وإنما في الغناء وترديده، والموسيقا وسماعها، ومع هذا الجو تصبح المواعظ الدينية ثقيلة على قلوب الناس. وأياً ما كان الأمر، لقد كانت الكنائس، متعلقة بأية مناسبة دينية، تبحث عن هؤلاء الشعراء، وفي مرات غير قليلة تغدق عليهم العطاء.

وكانوا، مع مدري الكلاب والصقور، يصحبون السادة وسيداتهم في الرحلات، يغنون لهم عبر الطريق وعند التوقف، ويذهبون عنهم رتبة السفر، ويمضون مع الجيوش إلى الحرب، يدقون الطبول. وفي مقاطعة بروفانس، وعلى نحو خاص في المرحلة الأولى، كانت مهمة الشاعر تختلط تماماً مع مهمة الجندي. وهم مع الجيش ينشدون القصائد الغنائية، ويعزفون الموسيقا المبهجة، ليثبوا روح العناد بين الجنود، وكان يقال في الأمثال: «إن هذا الجيش عائد بهم بلا أغان، كما لو كان مهزوماً في ساحة القتال». وأحياناً يؤق بهم إلى جوار أسرة المرضى لمواساتهم، أو الجرحى للتخفيف عن آلامهم. وفي وسع الشاعر الجوال بفنه المقتدر، أن يجعل الأدب والموسيقا يبلغان قمة المتعة، بها

ينزع الحزن من القلوب الكليمة، وبعث الأمل في العزائم المنهارة، ومد الأرواح القانطة بالهدوء والاطمئنان. غير أننا يجب ألا ننسى أبداً أن هؤلاء الشعراء يحملون حياة شخصية متناقضة، فهم أنصاف ملائكة وأنصاف شياطين.



تقدم لنا الوثائق، كما أرتأينا عبر الصفحات الماضية، الشاعر الجوال في حالة غير كريمة، عريداً سكيراً، مقامراً، على استعداد لأن يتقبل كل الإهانات، فهل كان فنه في مستوى أرفع من تقاليده؟ فيما يلي سنحاول الإجابة على هذا السؤال.

الرحلة إحدى الخصائص الجوهرية للشاعر الجوال، وتعدنا في دراسة التاريخ الأدبي على نحو خاص. وعلى نحو ما كان الشاعر العربي يفعل، يجيء من المشرق إلى الأندلس طلباً للشهرة، أو الثروة، أو المتعة، كان الشاعر الجوال في الأندلس يرحل بحثاً عن جمهور جديد، وهو في رحلته هذه ينشر المطوى من الأدب، ويشيع الجميل من الأنعام، بين المقاطعات والإمارات والممالك المختلفة، المتناثرة على امتداد شبه الجزيرة الإيبيرية. لقد كان هناك أربعة من الرجال المثقفين في العصر الوسيط يتعاونون على جعل الأدب عالمياً: التاجر، ورجل الدين، وطالب العلم، والشاعر الجوال.

كان الشاعر الفقير يرحل على قدميه، وفي لحظات طارئة غير مستقرة، كان يملك دابة، وكل متاعه الذي يحمله معه هو العود، أكثر الآلات الموسيقية استخداماً، ومخطوط يضم القصائد التي يُغنيها، وعادة يكون صغير الحجم، متآكل الجوانب، متواضع الكتابة والزخرفة والتجليد. وهو يرحل على امتداد الأندلس كله، وكان العميان أكثر رحلة من غيرهم، وربما طاف أحدهم شبه الجزيرة كله، بقصيدة واحدة يتعیش منها. أما الأغنياء فكانوا يملكون

ما يركبونه، حصاناً أو بغلاً أو حمراً، وكلهم، الفقراء والأغنياء، يبحثون عن جمهور يستمع، في الأسواق والشوارع والميادين العامة، وآونة في قلاع السادة أو قصور الأغنياء.

وعُرفَ الشعراء الجوالون بالعبافة، يتفائلون ويتشاءمون، فيزجرون الطير، ويستقرئون النجوم، ويستهدون مطالع الفلك، واستقبال الشاعر بالترحيب شيء تفرضه العادة، بين الشعب أو عند السادة، فلا يجهد نفسه، لحظة وصوله إلى أى مكان، في البحث عن مأوى ينزل فيه، فالناس جميعاً يعرفون أنه يحمل معه من البهجة والمتعة ما يقطع رتابة الحياة في أى بيت يمضى الليل فيه. والذين يقصرون رحلاتهم على الملوك يظهرون أمامها عادة، يحملون رسالة توصية من فارس، أو من شاعر منشد، أو من نبيل صديق، وحتى الشعراء الجوالون الذين يؤدون مهمتهم موظفين ثابتين، كانوا يرحلون إلى أراض أخرى، استجابة لدواعى مهنتهم، وبحثاً عن المزيد من الشهرة والمعرفة والتجربة.

هذه الرحلات المتواصلة أعطت فن الشعراء الجوالين طابعاً عالمياً سمحاً. يأخذ ويعطى، يُؤثر ويتأثر، وكانوا، دون ما ريب، أداة فعالة لتبادل الآداب بين المناطق المتعددة، ذات اللهجات المختلفة، في الأندلس، وبين بقية العالم المتحضر إذ ذاك. فهم يأتون من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، أو يذهبون إليها، والقادمون من المشرق، وبخاصة إلى الجانب الإسلامى من الأندلس، لا ينقطع سيلهم، من العراق، وسوريا ومصر، وكان الأندلس بقسميه المسيحى والإسلامى، وصقلية الإسلامية، نقطة الالتقاء بين الشعراء الجوالين، من العرب أو المسيحيين.

وكانت الرحلة بعامة، ورحلة هؤلاء الشعراء بخاصة، عاملاً هاماً في إشاعة الموسيقى والأدب بين المقاطعات المختلفة، والبلاد المتعددة، فعوضت العالم إذ

ذاك عن المطبعة، وكانت رحلة الشاعر الجوال أكثر تأثيراً من أى شخص آخر لأن فيه يسمع ويفهم دون حاجة إلى معرفة جيدة باللغة التي يُعنى فيها، وإنما يكفي الإلمام بها، أو حتى دون معرفتها، ولم يقف دور هؤلاء الشعراء عند ربط المقاطعات ذات اللهجات المختلفة، والتمكين للغة أدبية واحدة تفرض نفسها على الجميع، وإنما تجاوزوا هذا الهدف، وهو بذاته جليل وخطير، إلى تقريب الأذواق، وإشاعة الشعر. إنهم وهم يرحلون من قصر إلى قصر، ومن سوق إلى سوق، يصنعون باللغة والشعر والفن ما تصنعه بها الإذاعة الآن.

الدور الأكبر أهمية للشعراء الجوالين فيما يتصل بتاريخ الثقافة هو ابتداء الشعر، وإشاعة الموسيقى. ويعنى بهم دارس الأدب وتاريخه بوصفهم رواة ومؤلفين. وبمنا منهم بنوع خاص، في هذه الدراسة، أولئك الذين اتجهوا إلى أدب الملاحم، بألوانه المختلفة، بطولة ومغامرات وقصصاً. وثمة آخرون اهتموا على نحو أشد بالقصيدة الغنائية، هجاء وغزلاً، وألواناً أخرى كلها ذاتية وغير قصصية. وإذا كان شعراء القصيدة الغنائية معروفين، وحفظ لنا التاريخ معلومات وافرة عنهم، فنحن نجهل أصحاب الملاحم تماماً.

كان الشاعر الجوال ينشد الشعر الغنائي ويرويه، فإذا طمح أن يكون شاعراً منشداً فحينئذ يقرض الشعر أيضاً، وهؤلاء الشعراء، جوالين أو منشدين، كانوا يؤدون نفس الدور الذي اضطلع به الشاعر الجاهل من قبل، إثارة ومدحاً وتمجيداً. وقد جاء الشاعر الجوال البروفنسالي **مركيرو Mara-cabru** إلى إسبانيا عام ١١٣٥م، ومدح **ألفونسو السابع**، واستمنحه جوائزته، ولعله ألف وهو في قشتالة قشتالة قصيدته **Le chont de La voir** يدعو فيها إلى الحروب الصليبية، ولما عاد إلى جنوب فرنسا أخذ يستثيرهم للذهاب إلى إسبانيا لقتال المرابطين دفاعاً عن المسيح. وبعضهم كان يشارك في القتال مع سيده فعلاً، فالشاعر القطلان المنشد **هوجو دي متبلانا Hugo de**

Mataplana قاتل مع بدور الثاني ملك أرجون ضد الموحديين في معركة العقاب. والقصائد التي أشاعها هؤلاء الشعراء، عبر شبه الجزيرة الإيبيرية، أول طراز من الشعر الغنائي، وقد ازدهر في العالم اللاتيني بأجمعه، ومس جوانب متعددة من مشاكل الإنسان، من حب ومدح، ووصف وهجاء، وأشعار رعوية، غير أن معظم قصائد هؤلاء الشعراء، من البدء إلى أن استقرت اللغة في مطلع القرن السادس عشر، غير مفهومة تماماً، أو يعسر فهم المراد منها إلى حد بعيد. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن ديوان ابن قزمان الأندلسي المتوفى عام ١١٦٠، وكتب في عامية أهل الأندلس، وهي خليط من العامية العربية والرومانشية الأندلسية، ووصلنا كاملاً، مازلنا عاجزين عن فك طلاسمه، ولم نفهم من قصائده إلا القليل.



أول ذِكرٍ لشاعر جوال ينشد الشعر القصصي نجدُه في «كتاب التاريخ» لمطران طليطلة لذريق، وانتهى من تأليفه عام ١٢٤٣م، وفي ضوء ما أورده لنا من معلومات يرى علماء النقد أن الجانب المسيحي من الأندلس لم يعرف شعر الملاحم قبل القرن الثالث عشر، والحق أن هذا اللون من الشعراء والشعر كان موجوداً قبل تأليف هذا الكتاب بزمان طويل، في مقاطعة بروفانس جنوبي فرنسا، وفي جليقية شمال غربي الأندلس، غير أنه لم يُحفظ لنا من هؤلاء الشعراء الملحميين ولا اسم واحد، ولم تصلنا منه ولا ملحمة واحدة، باستثناء ملحمة السيد.

لكن الظلام الذي يلفّ هؤلاء الشعراء الملحميين لا يعني أبداً، وعلى أي نحو، أنهم كانوا وأعمالهم أقل احتراماً، أو يسترعون انتباهها أقل. على العكس، كان لهم في قصور الملوك والفرسان مكان ملحوظ، وإذا كان الإنتاج

الشعري الغنائى له من الأهمية ما جعله يجمع في ديوان، فإن العمل الملحمى كان أكثر علواً وتقديراً فجمع في «مدونات». وشخصية كل من الشاعرين توضح لنا الفرق بينهما، وتفسر لنا كثرة الأخبار في جانب وانعدامها في الجانب الآخر. فالأخبار الهائلة عن الشعراء الجوالين الغنائيين مردها إلى أن الشاعر الجوال عندما يُغنى، أو ينشد شعراً غنائياً، فإنما يغنى لنفسه عن نفسه، رغم كثافة الجمهور الذى حوله، وبصور انطباعاته إزاء الحياة التى تحيط به، ومن ثم فإن أشد القصائد قصراً ترد في الدواوين أو كتب المختارات منسوبة إلى صاحبها دائماً، وفي أحيان كثيرة مصحوبة بترجمة مفسرة لها، لتوضيح الإشارات الواردة فيها.

وعلى النقيض من ذلك تأت القصائد الكبرى، وتضم آلاف الأبيات، في المدونات التاريخية دون أن يعنى ولو بإشارة عابرة إلى الشاعر، لأن المؤلف كان يعتقد أن ذكره، إذا كان اسمه معروفاً، تشكيك في صدق الرواية التى يوردها، إلى جانب أن المؤلف كان يجهل شعراء هذا اللون من الشعر عادة. كان شعراء ومنشدهو الشعر الغنائى لا يملون الحديث عن أنفسهم واتخاذها مثلاً إذا دعت الضرورة، بينما شعراء الملاحم ورواتها ومن يتغنون بها يؤثرون أن يقدموا القصة محايدين وموضوعيين، دون أن يصلوا بينها وبين الحياة اليومية الحارية. وهم يؤثرون ألا يذكروا عن أنفسهم شيئاً. والحق أن الملاحم الفرنسية تذكر اسم الشاعر المؤلف، أما الملاحم الأندلسية فلم تخرج عن قاعدة تجاهله ولا مرة واحدة. ويمكن أن نفسر تجاهل مؤلف الشعر الملحمى بأن شعره ليس من إبداعه، وإنما هو، في كثير من الحالات، صقل لعمل آخر أكثر قدماً. وقد تكون أيضاً عملاً جماعياً، وليست من صنع مؤلف واحد، فشارك في صوغها كثيرون على امتداد عصور متعاقبة.

أتى الاختلاف بين الفنيين وبين الشاعرين إلى اهتمام مختلف بهما، وإلى

دراسة مفصلة لكل واحد منهما، ولو أنها متكاملان في الحقيقة، فالذين اهتموا بالشعر الغنائي رسموا لنا صورة جذابة للشاعر الجوال، بعاداته ومشاعره ورحلاته وهداياه في بلاط الملوك، وتسوّله بين العامة، ونشاطه المستمر والمريب على الحدود مع الدولة الإسلامية، وأن شعره يتدفق من داخله، يعكس أعماقه، فيأق فناً ذاتياً خالصاً. بينما الشعر الملحمي يبقى بكل شهرته، داخل نطاق الرواية والشعبية، وإذا كان مؤلف القصيدة الغنائية لا يجب أن يسمى شاعراً جوالاً Juglar ويفضل أن ينادى شاعراً منشداً Troubadour، فإن شاعر القصيدة الملحمية لا يمكن أن ينسب إلا إليها، فهو شاعر جوال ذو لون خاص، داخل معنى الكلمة الفضافاض. وكانت الكنيسة الرسمية في الجانب المسيحي غير راضية عن الشعراء الجوالين الغنائيين، وتعطى تأييدها كله للشعر الملحمي، بوصفه رسالة تهذيب، لتعليم التاريخ، وتربية الوجدان غير الرخى، وهو رأى لا يبعد كثيراً عن رأى نظريتهم من رجال الدين في الجانب الإسلامى.

وإذا كنا لا نعرف رواية واحدة ملحمية شخصية، إلا أن المدونات التاريخية احتفظت لنا بمقتطفات من ملاحم أكثر قدماً من أية قصيدة غنائية محفوظة، وتسمح لنا، ولو تقريباً، بتصور ألوان الشعر القصصى الذى كان يتغنى به الشعراء الجوالون. سنجد أن هؤلاء الشعراء يقصون علينا ألواناً من الصراع الداخلى بين العائلات القشتالية الإقطاعية، قصص فيه ثأر وتسامح، وعفو وانتقام، وحب وخيانة، وشرف وخسة، ووفاء وغدر، وكل فضائل الحياة الإنسانية وردائلها، ولم تأخذ هذه الملاحم مادتها من الصراع بين المسلمين والمسيحيين وكلهم أندلسيون، إلا عندما غزا المرابطون الأندلس، وهم أفريقيون، ثم باستيلاء السيد على بلنسية، وكان السيد يمثل عاصفة هزت كل بنيان الأندلس المستقر، في مجالاته المختلفة، الاجتماعية والدينية والطبقية. ويتميز

الشعراء الملحميون الإسبان دائماً بأنهم يلتقطون مادة ملاحظتهم من الأحداث المعاصرة التي تحيط بهم، بينما الشاعر الملحمي الفرنسي، والبروفسالي على نحو أخص، يقص دائماً أحداثاً بعيدة، ترجع عادة إلى عصر شارل.

أما الجوّال الأعمى، وتعيش من إنشاد المغامرات القديمة أو غنائها، فقد أصبح موضع الاحتقار من شعراء البلاط، ومن رجال الدين على السواء، خلال القرن الخامس عشر وما تلاه، ثم لف الظلام حياته وحمله التدهور حتى النهاية، فلم يستطع أن يستردّ، أو يلعب دوره في الحياة الأدبية. ولقد احتضرت الآن كل هذه الأشكال القديمة، ولكن، على نحو ما في العالم العربي، لا تزال لها ظلال شاحبة في قرى كورة «أستورياس» المعزلة، وكورة «أبله» الناصحة بكل تقليد أندلسي أصيل، فيها مازال الموسيقى؛ وهو أعمى عادة، يُغنى الناس على قيثارته قصصاً يتحدث عن معجزات القديسين، ومغامرات اللصوص، وحيل الشطار، ومفارقات الحياة الغامضة.



منذ البدء كان الشاعر الجوّال يسلي الجمهور من كل الطبقات بالغناء والموسيقا، وليس ثمة شك أنه ورث وتمثّل جانباً كبيراً من التراث الذي وجدته، حكايات وأساطير، وأفاد كثيراً مما جاء به المسلمون، ومن الرحلة إلى إيطاليا وجنوب فرنسا، وكان عليه دائماً أن يجدد هذا التراث، لكي يلاحق التطور السريع في الأذواق، والحركة الدائبة المتغيرة للتقاليد والحياة اليومية، ومراعاة هذا الجانب أعظم ما برع فيه الشاعر الجوّال. لقد كان يعيش من عطى الجماهير وفضل خيرها، جماهير متجددة تسمع وتعجب وتدفع وتتفوق، والشاعر الخلاق المجدد هو الذي ينتزع منها الإعجاب ويدعها تمضي وفي أعماقها شيء من حبه وتقديره، والعودة إليه، ومطالبته بالمزيد من البقاء.

بدأ الشعراء الجوالون يغنون لحظة انهار المسرح اللاتيني، وعندما بدأت اللاتينية تتراجع في السنة الجماهير، فكانوا أول من واجه محنة الأديب حين يتحدث إلى جمهوره بلغة لا يفهمها، وأول من أحس بالحاجة الملحة إلى الإنشاد والغناء باللغة المشتركة للسامعين، وهكذا بدأ، شيئاً فشيئاً، يقترب من العامة، ولا بد أن وقتاً طويلاً مضى قبل أن يتمكن هؤلاء الشعراء من أن يجعلوا اللغة اللاتينية غير المفهومة، قريبة إلى أذهان السامعين، يمزجونها شيئاً فشيئاً بكلمات وتعابير من اللغة الشعبية، عائلية أو حياتية أو أدبية، حتى انتصرت هذه أخيراً، وقضت على اللغة اللاتينية نهائياً. وبذلك حقق الشاعر الجوال انتصاراً حاسماً في المجال الأدبي. لقد شق بشعره الرومانتي طريقه إلى قصر السيد، وفناء الكنيسة، وعرصه السوق، ورحبة الميدان، وامتداد الشارع، وحطم الأسوار الحاجزة بينه وبين وجدان الجماهير، وهى القطاع الأكثر عدداً واتساعاً في العصر الوسيط، وجعل لغتها مركباً لفنون من القول عامة وراقية، وقادرة على أن تحلف اللغة اللاتينية، في الوقت الذى كان فيه الكتاتون بهذه اللغة، محاصرين وضائعين، سجناء لغة ميتة، بلا جمهور ولا ثقل ولا تأثير.

لقد ولدت الآداب الحديثة على يد الشعراء الجوالين، جاءت إلى الحياة والجماهير غايتها، واستمرت لقرون عديدة أدباً عامياً يتجه نحو العامة، وابتدعها أناس ممتازون، رغم أنهم كانوا يعيشون في أوساط ذات ثقافة منحطة، بعيدة عن اللغة العالمية، ومع ذلك فلم يكن الشعراء الجوالون من الجهلة، ولا يمكن أن يكونوا، حتى ولو جهلوا اللغة اللاتينية، وبالتالي القراءة والكتابة، فقد كان على كل واحد منهم، في ضوء ظروفه وقدراته ومحيطه، أن يرتفع إلى مستوى أستاذه ومهنته. ورغم أن شعره كان موجهاً إلى جمهور أقل ثقافة، لم يكن يختلف، أو يختلف قليلاً، عن قصائد الشعراء المنشدين، وهى أكثر أرسقراطية. نعم كان جمهوره بدائياً لا يعرف اللاتينية، أمياً يجهل القراءة،

متفاوت الثقافة، متعدد الذوق، وهى عقبات لا تقلل من قيمة شعره أبداً، لأن المسرح المعاصر، وهو فى قننه يتجه إلى جمهور مختلف ذوقاً وثقافة وعمراً، على نحو أوضح مما كان عليه جمهور العصر الوسيط.

كانت القصائد التى يتغنى بها الشاعر الجوال تتعرض للتهذيب والتنقيح، سواء كانت من تأليفه، أو اشتراها، أو مسروقة، أو منسوخة، لان الجمهور تواق دائماً لما هو جميل ولطيف وطريف، وعلى الشاعر لكى يحتفظ بمكانته قريباً من قلوب سامعيه وعقولهم أن يجدد نفسه دواما، وكان خلال إنشاده أو غنائه يتحسس ملامح سامعيه، ويرقب مشاعرهم، ولو أن ذلك لا يعنى أن كل قصيدة أعيد بناؤها فريدة بابها. ولم تكن أشعار كل الشعراء موضع تنقيح وتهذيب، فبعض القصائد كانت دون إعجاب الجمهور وتقديره فاختفت سريعاً، وبقيت مُدونة، إذا كانت قد دُونت، فى شكلها الأول بلا تغيير. كما أن بعض القصائد استطاع مؤلفها أن يضعها، منذ أول لحظة، فى آتى لفظ، وأروع جملة، وأنعم بيت، وما من حاجة تدعو إلى إدخال تعديل عليها، ولدينا من هذا اللون كتاب «الحب المحمود» ديوان شعر كامل لرئيس كهنة مدينة هيتا، فقد جاء غاية فى بابه منذ أن جرى به قلم صاحبه شعراً رقيقاً.



كان مسلمو الأندلس، فى جملتهم الغالبة، من العناصر التى لقبها الفساحون المسلمون فى شبه الجزيرة، ومع استقرار هؤلاء انتشرت لغتهم، وساد دينهم، وأخذ السكان يتكلمون فى حياتهم اليومية لغة هى خليط من العربية والرومانشية، ولقد ابتدع الرجل فى قرطبة فى آخر القرن التاسع الميلادى وأول العاشر ليواجه هذه الظاهرة، ويرضى النهم الجمال عند المتحدثين بها، ممن لا يفهمون العربية الفصحى، ولا الرومانشية الخالصة، ولا اللاتينية المتحجرة،

وإذا كان ديوان ابن قزمان أحسن مثل لهذه الظاهرة في اللغة العربية، حيث تنائر الكلمات الرومانسية بكثرة وسط الكلمات العربية، فتمة أشعار رومانسية أيضاً، لشعراء جوالين مسيحيين، جاءت على هذا النحو، حيث تنائر الكلمات العربية بكثرة وسط الكلمات الرومانسية، وكانت مفهومة لأى أندلسي، حتى ولو كان مسيحياً شمالياً لا يقيم بين المسلمين. كلمات مثل: حبيب، وحزين، ويارب، والقلق، والصبح، والفجر، وكلمات أخرى كثيرة ذات إشباع وجدان. وقد أدت هذه الظاهرة إلى نتائج هامة على الصعيد الرسمي للدولة، فكان الأندلس أشد بلاد العالم الإسلامي تشدداً في الدين، وتحمساً للفصحى، وعناية باللغة، وتتبعاً للأخطاء، وتألماً في «لحن العامة»، وإهمالاً للظواهر التي تمس هذا الاتجاه على صفحات كتب الأدب والتاريخ والمختارات، فليس بين أيدينا ما يساعد على معرفة نشأة الزجل أو الموشحات وتتبع تطورها، على نحو واضح وبضمير مطمئن. وإذا كنا نجهد الآثار الأدبية لهذا الاتجاه، لمعلوماتنا عن الشعراء الجوالين المسلمين في الأندلس الإسلامي قليلة للغاية، أو هي نادرة وبخاصة في المراجع العربية.

إلى حد بعيد يمكن اعتبار ابن قزمان المتوفى عام ١١٦٠م. مثلاً للشاعر العربي الجوال، وأورد لنا المؤرخون تفأً من أشعاره، ووصلنا ديوان أزجانه كاملاً، وكان في حياته الخالصة مثلاً حياً للمسلم الأندلسي الأصيل. كان مرتفع القامة، أشقر الشعر، أزرق العينين، عربيذاً مهتكمًا، غير كبير اعتماد بالدين والتقاليد، قليل الاستقرار والإقامة، كثير الرحلة من بلاط إلى بلاط، يريح عيشه من الحفلات خاصة أو عامة، يعيش من شعره، ويستهدى مادحيه وسامعيه، نبيذاً أو ملابس أو دقيفاً أو سكتناً، أو جواهر لعشيقاته، أو حتى دراهم ليقص شعره، وهو إلى جانب أنه شاعر وزجال، صاحب نكتة ونادرة، جليس ومامر، يستطيع أن ينثر البهجة، ويبعث المرح، بين من يسهرون معه

أو يستمعون إليه، وهي خصائص الشاعر الجوال كما أومأنا إليه.

ونجد في المصادر الأندلسية المسيحية معلومات لا بأس بها عن شعراء جوالين مسلمين، كانوا يقيمون في الجانب الإسلامي أصلاً، ثم يرحلون إلى الممالك المسيحية ليتعشوا، أو من المسلمين الذين تخلّفوا في الممالك المسيحية بعد أن انحسر عنها مدّ الإسلام.

كان رجال الدين المسيحيون دائمى الشكوى من أن المسيحيين يأتون بالشعراء الجوالين المسلمين واليهود إلى الكنائس ليغنوا ويرقصوا مما يتنافى مع وقار أمانة العبادة وجلالها. ونجد هؤلاء الشعراء المسلمين في رفقة عدد من الأمراء أو الأغنياء، فعندما ذهب الأمير بدرو، والذي سيصبح فيما بعد الملك بدرو الثالث العظيم، ليزور حاه ألفونسو العالم، في إبريل عام ١٢٦٩م كان يصحب معه في رحلته لتسلية مجموعة من الشعراء الجوالين، بينهم عدد من المسلمين، ويتلقون طبقاً للسجلات مرتبات عالية.

وعندما أرسل فرناندو الرابع ملك قشتالة عمه الأمير دون خوان ليتفاوض مع خاتمة الثاني ملك أرجون، عام ١٣٠٤م، تلقى هو وأفراد حاشيته هدايا من الملك الأرجون، وتذكر السجلات من بين هذه الحاشية الشاعر الجوال محمد، وكان يجيد العزف على البزق. وفي الكتاب الذى ألفه الملك ألفونسو العالم «أغنيات لمريم المقدسة» رسم لشاعرين جوالين، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، يعزفان على العود معاً، واقفين متعاونين، إلى جانب منضدة صغيرة عليها نبيذ. وفي بلاط شانجه الرابع ملك قشتالة نجد في عام ١٢٩٢م، عدد الشعراء الجوالين الذين تدفع لهم مرتبات يبلغون سبعة وعشرين، من بينهم ثلاثة عشر مسلماً، فيهم امرأتان، وواحد يهودى، وأثنى عشر مسيحياً وثمة شاعران آخران، كانت تدفع لهما الملابس فحسب.

ويقول رئيس كهنة مدينة هيتا، وعاش في القرن الرابع عشر الميلادى، إنه كتب كثيراً من الأغاني لمغنيات مسلمات ويهوديات، ويُرجح أنه كتبها في رومانثية تفهم عند المسلمين والمسيحيين، وهو يُحَدَّر بأن كل شعر وله موسيقاه، وكل أغنية ولها آلتها. وأخيراً فقد شهرت مدينة شاطبة في شرق الأندلس بأنها كانت مركزاً كبيراً لهؤلاء الشعراء الجوالين، عنها يصدرون إلى شتى أنحاء الجزيرة، واليها يعودون، إذا كبرت بهم السن أو ضاقت عليهم سبل العيش.

ومع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى بدأ الشعراء الجوالون، على امتداد الأندلس كله، يتغنون بملحمة جديدة، كان بطلها ملء سمع النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وقُدِّر لها أن تكون الوحيدة التى تصلنا من هذا القرن وما بعده، وأن تكون أول وأجمل درر الأدب القشتالى فى العصر الوسيط، إنها ملحمة السيد القنبيطور، وللعثور عليها قصة وتاريخ.